نظرية ماكندر
قراءة جديدة في ظل الهيمنة الامريكية

الدكتور
حميد حمد السعدون
رئيس قسم الدراسات الاوروبية
مركز الدراسات الدولية -جامعة بغداد

المقدمة

كوّن الأهتمام بموضوع الجيوبولتكس عند القيادات السياسية العالمية المختلفة أهمية استثنائية لارتباط ذلك الموضوع الحيوي بحياة ونمو الدول أو اندثارها، وتكمن هذه الأهمية في إدراك الجميع خطورة مسببات الأوضاع العكسية لهذا النشاط على الكيانات الدولية في ظل احتدام الصراعات وتأثيراتها في المنطقة الأعم مما يحيط ببؤر الأحداث.

ولذلك فأن الارتباط المتلازم بين فعل الدولة وتأثيراتها في مايحيط بها ويتفاعل معه، يتأتى أغلبه من الفعل الجيبولتيكي لها، مع ما يرافق ذلك الفعل من نمو قدرات القوة بالطريقة التي تنظم مساراتها وتفاعلاتها القريبة والبعيدة في التأثير في مسارات الأحداث وتوجهاتها.

فحوى النظرية

لقد كونت نظرية الجغرافي البريطاني (هالفرد ماكندر Halford Mackinder) خلاصة عامة لما يحيط بعلم الجيوبولتكس وأهتمامات الدول فيه، خصوصاً أنه كان متابعاً تطوير وتحديث نظريته بما يستجد من تطورات وأحداث على المسرح السياسي، ابتداءً من الحرب العالمية الأولى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. فقد كتب أن ١٢/٩ من سطح الكرة الأرضية تغطيه المياه أما اليابس فيشمل ١٢/٣ فقط، وتمثل جزيرة العالم (World Island) جزأين منها وتشمل هذه كل من قارات أوربا وآسيا وأفريقيا مجتمعة، أما الجزء المتبقي فتشغله كل من قارات أمريكا الشمالية والجنوبية واستراليا، وهذه كلها تعاني عيوباً استراتيجية تتميز بها مناطق الخطوط الخارجية.

وأكد أن الجزيرة العالمية التي لا تستطيع السيطرة عليها ألا قوة برية تستطيع أن تجعل من تلك القوة البرية العظيمة أعظم قوة بحرية أيضاً، لأن السيطرة على منطقة السويداء (Heard land) تفضي إلى حكم العالم وذلك لأن القارات الثلاث (أوربا وآسيا

وأفريقيا) تكون في الحقيقة قارة واحدة عظمى ألا وهي جزيرة العالم، وعلى هذا الأساس وضع (ماكندر) نظريته على أركان ثلاثة خلاصتها:

* أن من يحكم شرقي أوربا يتسلط على منطقة السويداء.
* ومن يحكم منطقة السويداء يتسلط على جزيرة العالم.
* ومن يحكم جزيرة العالم يتسلط على العالم كله.[1]

وبرغم أن هذه النظرية مكان جدل بين المهتمين والباحثين منذ أن بدأ تداولها في دراسة المتغيرات الجيو-سياسية في حياة وموت الدول، فقد طرح العديد من المفكرين آراءهم وتصوراتهم المتطابقة أو المختلفة مع ما جاء به (ماكندر) خصوصاً في اتساع أو ضيق مساحة منطقة السويداء التي جعلت المثابة الأساسية في التحكم بمن تنتهي أليه سلطة التحكم في العالم. وأن جرى الاتفاق بشكل عام على أن منطقة السويداء هي (اوراسيا).[2]

من العزلة الى التدخل

واليوم وفي ظل المتغيرات الاستراتيجية الهائلة التي مكنت الولايات المتحدة الأمريكية من التحكم سواء في تمكنها من منطقة السويداء (أوراسيا)، أو في تفوقها العسكري-الاقتصادي فقد اضيف سبب آخر في تأكيد ذلك الأنفراد والهيمنة تمثل بقدرة الولايات المتحدة الأمريكية من تحويل مركز الثروة المستقبلية (النفط) للقرن الواحد والعشرين في منطقة الخليج العربي، إلى منطقة احتلال عسكري أمريكية بالكامل يرافقها سعي أمريكي دبلوماسي وسياسي واقتصادي وعسكري ونفسي في أن تكون الحصة الأمريكية في كعكة النفط القوقازي الذي بدأت تباشير قيمته تلوح في الأفق حصة الأسد مع التأكيد لكل الأطراف في العالم (الأصدقاء والأعداء) على حد سواء، أن الولايات المتحدة الأمريكية تأخذ دورها المهيمن الذي تفردت به بعد انتهاء الحرب الباردة بالاستحقاق الذي تملكه وأنها إذا كانت (القوة الأكبر) في القرن العشرين، فإنها مصممة على أن تكون (القوة الأوحد) في القرن الواحد والعشرين.[3]

---

(1) للمزيد من الأطلاع على فحوى النظرية وتطوراتها وتأثيراتها الفعلية، ينظر:
أ/ د.عبد المنعم عبد الوهاب، جغرافية العلاقات السياسية، منشورات مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٧٧، ص: ١٥٠-١٥٩
ب/ ايما نويل تود، ما بعد الإمبراطورية، ترجمة محمد مستجير، دار مسطور، القاهرة ٢٠٠٤، ص: ٩٧-١١٢
ج/ د.كاظم هاشم نعمه، الوجيز في الاستراتيجية، جامعة بغداد، كلية العلوم السياسية، بغداد ١٩٨٨، ص: ٤٤-٤٨
د/ د.عبد القادر فهمي، المدخل إلى دراسة الاستراتيجية، جامعة بغداد، كلية العلوم السياسية، بغداد ٢٠٠٥، ص: ٨٦-٩٢

(2) د.عبد المنعم عبد الوهاب، مصدر سابق، ص: ١٥٦-١٦٢

(3) د.حميد حمد السعدون، فوضوية النظام العالمي الجديد، دار الطليعة العربية للنشر والتوزيع-عمان ٢٠٠١، ص: ١٤

في ظل تلك الأجواء المتدفقة بسيل القوة والعنفوان، حدث ما حدث في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، والذي عده بعضهم حرباً عالمية ثالثة لأن ما حدث جاء بأشكال وأدوات غير معهودة من قبل، غير كونه ضربه هائلة موجهة إلى هيبة القوة العظمى الوحيدة في العالم في هذا الوقت مما يشير إلى بداية خلل كبير في التوازنات والمعادلات الأساسية التي حكمت العالم منذ انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة النظام العالمي الجديد غداة انهيار الاتحاد السوفيتي ونتائج حرب الخليج الثانية ١٩٩١.[4]

فطيلة تاريخها لم تتعرض الولايات المتحدة الأمريكية لأي هجوم مباشر على أراضيها من خصومها المتعددين وذلك لأسباب جغرافية وتقنية ارتبطت بزمن الصراعات التي دخلتها مع الآخرين وأقصى ما تحقق لأحد الأطراف من هذه الصراعات ما حققه اليابانيون في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١، في هجومهم على ميناء (بيرل هابر) في المحيط الهادي، وتعطيلهم لفترة محدودة فعالية الأسطول الأمريكي السابع، وما عدا ذلك فقد دخل الأمريكيون صداماتهم أو صراعاتهم مع الأطراف الأخرى في أقليم ومجال الخصم، ابتداءً من الحرب الأسبانية-الأمريكية عام ١٨٩٨م، وهي أول حرب توسعية تخوضها الولايات المتحدة عبر البحار، علماً أن الأمريكان قد منعوا القوى الأوربية من التدخل في شؤون العالم الغربي في الأمريكيتين منذ أن أعلن الرئيس الأمريكي (مونرو) مبدأه الخاص بذلك عام ١٨٢٤م، معبراً فيه عن جدية بلاده في الحفاظ على ما عده المجال الحيوي لها (Living Space) في ذلك الجزء من العالم.

منذ ذلك التأريخ اتجهت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تحدي المبدأ القائل إن بريطانيا هي التي تحكم الأمواج فتواجدوا في الفلبين وجزر هاواي وفتحوا قناة بنما واشتروا الاسكا من روسيا ووسعوا مساحة بلادهم شمالاً وجنوباً، وكان لهم نفوذ في جميع المحطات الجزرية المهمة، الفاصلة بين جانبي المحيط الأطلسي، وانشغل الاستراتيجيون الأمريكان منذ بداية القرن العشرين في تطوير مذاهب السيادة البحرية على المحيطات العالمية.[5]

والولايات المتحدة الأمريكية الدولة الوحيدة الكبرى في العالم التي يمكن تحديد تاريخها على وجه الدقة، كما أن جميع سكانها من المهاجرين الذين كونوا أمة للمرة الأولى في التأريخ من هذا المزيج البشري الذي لم يبتدع حتى لغة جديدة تليق بأمبراطوريته فتبنى لغة مستعمريه وكذلك ثقافتهم وأن كان قد أضاف الكثير من خصائصه إلى ما كان ذات يوم أوربياً صافياً.

والولايات المتحدة الأمريكية لم يكن لها يوماً جارٌ قوي على حدودها، بحيث لم تضطر قط إلى مواجهة مشاكل الأمن التي تواجهها الأمم الأقل حظاً، إزاء ذلك فقد كان

---

[4] د.عماد فوزي شعيبي، السياسة الأمريكية وصياغة العالم الجديد، دار كنعان، دمشق ٢٠٠٣،ص ٣٨

[5] د.عبد القادر محمد فهمي، مصدر سابق، ص: ٩٢-ومابعدها

فهم الأمريكيين لسياستهم الخارجية دائماً فهماً ذا اختيار محدد كما كان فهماً ناتجاً عن امتلاك القدرة على المشاركة في التعهدات الدولية أو الأحجام عنها تبعاً لرغبتهم، ولذلك فإن كل مبادرة أمريكية تقدم في هذا الإطار للشعب الأمريكي كانت تستند إلى أن لها موعداً نهائياً يمكن لأمريكا أن تنسحب بعده وهو ما يسمح بوضع أساس لنمط متوازن يمكنها من أن تصبح في حلٍ من أي التزام.[6]

وهذا ما يفسر السبب في كون السياسة الخارجية الأمريكية قد جرى العرف على تقديمها بمصطلحات نفسية ولاهوتيه بالتبادل، فهي إما وسيلة يمكن بها توجيه العلاقات بين الأمم وإما أنها لتغيير أفكار المعادين للنهج الأمريكي في التعامل مع الشؤون الدولية.

ولذلك لم ينته العقد الثاني من القرن العشرين إلا وكان عدة مئات من آلاف الجنود الأمريكان قد عبروا الأطلسي ليشاركوا في حملة عسكرية محيطية غير مسبوقة الحجم والمدى في الزمان الذي وقعت فيه حيث إن مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الأولى عد كسراً لعزلتها النسبية عن العالم، مما اشار إلى ظهور لاعب رئيسي جديد على حلبة المسرح الدولي ولذلك فقد رددت جدران قصر فرساي في مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس عام ١٩١٩، ومعها كثير من قادة الشعوب والحركات الوطنية نقاط الرئيس الأمريكي (ودرو ويلسون) الأربع عشرة الخاصة بتسوية النزاعات الدولية داعين إلى تطبيقها وجعلها دستوراً عالمياً للجميع برغم امتعاض ورفض الدول الاستعمارية الأوربية حينذاك بريطانيا، فرنسا وإيطالياً، لمثل هذا الاتجاه والعمل على إجهاضه. ولم يحظ الموضوع بالاهتمام والمتابعة والتقدير ولسنوات طويلة مثلما حظيت به نقاط الرئيس (ويلسون) والتي قدمت بلغة يفتقر لها المسرح السياسي آنذاك لكنها للأسف قدمت في الزمان والمكان الخطأ. ومع ذلك فإننا إذا (توخينا الدقة فإن الحرب العالمية الأولى ظلت بالدرجة الأولى حرباً أوربية وليست عالمية، لكن سمة التدمير الذاتي التي جاءت بها أشارت إلى بداية النهاية لتفوق أوربا السياسي والاقتصادي والثقافي على بقية دول العالم، لم تستطع أية قوة أوربية على التحديد أن تسود بشكل حاسم إبان الحرب، أما نتيجة الحرب فقد تأثرت بشدة بدخول أمريكا القوة غير الأوربية الصاعدة إلى ميدان النزاع ومنذئذٍ كان على أوربا أن تصبح وعلى نمو مضطر المفعول به لا الفاعل في أساسيات النفوذ العالمي.[7]

ومع ذلك فقد خذل الكونغرس الأمريكي سياسات رئيسه الخارجية حينما امتنع عن التصديق على تسوية المنتصرين التي انتهى أليها المجتمعون في قصر فرساي. وفضل الأمريكيون التراجع بسرعة عما بدر منهم في الخوض بالمشاكل الأوربية متمسكين بمزيج

---

[6] د.حميد حمد السعدون، الغرب والإسلام والصراع الحضاري، دار وائل للطباعة والنشر، عمان ٢٠٠٢، ص: ٧٩

[7] زيغنيو بريجنسكي، رقعة الشطرنج الكبرى، ترجمة أمل الشرقي، ط١، الأهلية للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان ١٩٩٩، ص: ١٦-١٧

مشبع من الأنعزالية والمثالية قاصدين أن يكونوا متفرجين أكثر منهم مساهمين في السياسة العالمية حينذاك، ومتمسكين بالمفهوم الأمريكي للأمن القائم على النظر إلى أمريكا كونها جزيرة قارية، ترافق هذا والازمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩-١٩٣٣، والتي أضرت بالولايات المتحدة الأمريكية بطريقة أشد من مثيلاتها في الدول الأخرى، مما استوجب سياسات وجهود جديدة للخروج من هذه الأزمة وبما يطور أداء الاقتصاد الأمريكي.

وطيلة فترة ما بين الحربين تمسك الأمريكان بمفهوم العزلة إلى أن ايقظتهم صواريخ وطوربيدات الأميرال (ايزوروكوياماموتو)[*] النازلة على ميناء اللؤلؤ في (بيرل هاربر) في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١م، من غفوة طالت، الأمر الذي دعا الولايات المتحدة أن تسهم في الحرب العالمية الثانية بجهد كبير وعلى مسرحين متباعدين، الأول في القارة الأوربية بوجه ألمانيا وإيطاليا ومن تحالف معهما، والثاني في المحيط الهادي بوجه اليابان، وتجلى في تلك الحرب التي بلغت فيه الحقبة الأوربية في السياسة العالمية نهايتها، مشهدين رئيسيين: الأول: استعمال الولايات المتحدة الأمريكية السلاح النووي بوجه اليابان مما أدخل على حلبة الصراع العالمي أدوات لم تكن مسبوقة، والثاني: اصطفاف العالم تحت لافتة معسكرين أحدهما شرقي يقوده الاتحاد السوفيتي، والآخر غربي تقوده أمريكا بما عرف في حينه بنظام القطبية الثنائية (Bipolar System).[8]

اتساع النفوذ والهيمنة الامريكية

وقد سيطر التنافس ثنائي القطبية من أجل السيادة العالمية على السنوات الخمسين الفاصلة بين منتصف القرن العشرين ونهايته، استخدم فيها الطرفان كل أساليب وأدوات الصراع التي تمكنها من إدامة هيمنتها على المسرح الدولي خصوصاً أن ذلك المسرح شهد العديد من التوترات التي كادت تؤدي إلى مواجهة مدمرة بين القطبين، وقد (أضفى التقاء المدى الجيوبولتيكي العالمي والكونية المنسوبة إلى المذهبين المتنافسين ضراوة لا مثيل لها على عملية التنافس، لكن عاملاً إضافياً آخر (مشبعاً هو أيضاً بالإيماءات العالمية) هو الذي جعل التنافس فريداً حقاً أشار ظهور الأسلحة النووية إلى أن وقوع حرب من النوع الكلاسيكي بين المتنافسين الرئيسيين لن يعني دمارهما المشترك فحسب بل أن من شأنه أن ينزل عواقب مميتة بجزء كبير من الإنسانية، وهكذا أخضعت ضراوة المنافسة في الوقت ذاته إلى انضباط ذاتي خارق من جانب كل من المتنافسين.[9]

(*) وفي ما بعد وتحديداً في ١٨نيسان/أبريل ١٩٤٣، تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من الأميرال المذكور، حينما نصبت له كميناً جوياً فوق جزيرة (بوجينفيل) قرب الفلبين بتشكيل قتالي مؤلف من طائرات (ب-٣٨)، بعد أن اخترقت شبكة الاتصالات اليابانية، دون أن تعلن عن ما حققته لكي لا يلفت ذلك نظر اليابانيين للاختراق الحاصل.

(8) إسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية، مطبوعات جامعة الكويت ١٩٧١، ص: ١٨٠

(9) زيغنيو بريجنسكي، مصدر سابق، ص: ١٨

إلا أن ذلك الوضع الثنائي في المنافسة قد أفسح المجال لقوة جديدة في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية لتنفرد بالهيمنة على السيادة العالمية بما يمكن أن نسميه بالمركز أحادي القطبية (Unipolar) بعد أن سقط الاتحاد السوفيتي وتشظى لدول ودويلات في نهاية عام ١٩٩١م إزاء عدم قدرته على المنافسة المؤثرة لا في النمو الاقتصادي ولا في التكنولوجيا العسكرية (وقد سبب التعفن الاقتصادي تفسخا ايدلوجيا حتى عند المستويات القيادية، حيث استنزفت التعقيدات الايدلوجية التي وضعها كرادلة الارثوذكسية الشيوعية القدرة الإبداعية للاتحاد السوفيتي جاعلة من النظام القائم يزداد تصلبا، ومن اقتصاده يزداد هدرا مع قصوره عن التنافس في مجال التقنية الحديثة إضافة إلى النقد المتصاعد للايديولوجية الماركسية-اللينية وقيمتها في ما يخص الديمقراطية وحقوق الإنسان والتطور والتقدم).[10]

ما حصل في نهاية عام ١٩٩١، والذي انتهى بتشظي وانفجار الأمبراطورية السوفيتية كون غرابة في تتبع اضمحلال القوى العظمى، فهذه الأمبراطورية لم تسقط جراء هزيمة عسكرية مباشرة بقدر ما تدحرجت جراء التآكل الذي عجلت به الضغوط الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية، الأمر الذي يدفعنا إلى القول إن الأمبراطوريات بهذا المعنى الذي كان عليه الاتحاد السوفيتي سابقا، لا تسقط بل تتساقط ويتم ذلك عادة إما بشكل بطيء جدا كما حصل في وضع الأمبراطورية العثمانية أو يحدث أحيانا بسرعة استثنائية كما حصل في حال الاتحاد السوفيتي السابق بحيث كان الزمن الذي جرى فيه التأسيس لا يوافق أو يقارب مثيله في حالة السقوط برغم أن المعني حالة واحدة وهي أمبراطورية عالمية القوة والنفوذ.

انهيار الطرف المنافس وضع الولايات المتحدة الأمريكية في موضع فريد ومتميز حيث منحها التفرد بالقوة العالمية الوحيدة وأصبحت أمبراطورية عسكرية عالمية بشكل مستحدث وليس على طريقة الأمبراطوريات السابقة، أمبراطورية الولايات المتحدة الأمريكية تكمن في تفردها بالتأثير المباشر في كل القرارات والشؤون العالمية مع انصياع الأغلبية الدولية لما تريده واشنطن بحيث أن التوافق الدولي لرغبتها أوحى بحقيقة وجود تراتيب ما سمي بالنظام العالمي الجديد، وهذا التوافق الحديث لا يختلف في معناه المجازي عما كان عليه التأسيس الأمبراطوري القديم في تحقيق النفوذ من خلال هرم من التوابع والوكلاء والمحميات والمستعمرات.[11]

أن انهيار الاتحاد الاتحاد السوفيتي وتفككه عام ١٩٩١، قد اتاح للولايات المتحدة الأمريكية نجاحها في نهاية مسعى استمر أكثر من أربعين عاما لطردها من اوراسيا. لذلك فلم تعد الولايات المتحدة تواجه تحديا ستراتيجيا كان من شأنه أن يواجهها بكتلة اوراسيا

---

(10) د.حميد حمد السعدون، فوضوية النظام العالمي الجديد، مصدر سابق، ص: ٢٤

(11) نعوم تشومسكي، القوة والإرهاب، ترجمة إبراهيم يحيى الشهابي، دار الفكر،دمشق ٢٠٠٣، ص٦٢

الموحدة والخاضعة لنفوذ أمبراطورية عدائية، لأن ذلك الانهيار وتشرذمه، منحها الحرية على زرع حضورها السياسي في دول المنطقة لما بعد المرحلة الشيوعية، وأتاح لها القدرة في الهيمنة المطلقة على منطقة الخليج العربي الغنية بموارد الطاقة وملامسة حدود الصين، لاستعمالها في أوقات الحاجة للضغط أو الابتزاز.[12]

فما تحقق من انهيار الاتحاد السوفيتي، فتح الطريق واسعاً أمام الولايات المتحدة للتمدد شطر الفراغ الاوراسي، وأخفى حقائق جيو سياسية كبيرة على الأطراف الجنوبية والغربية في القارة الآسيوية. وبحصولها على هذه المكانه فقد أصبح بإمكانها أن توسع من دائرة (الجزيرة العالمية) وفقاً لمصالحها وأولوياتها، وأمنها القومي.

واليوم يبدو النفوذ العالمي الأمريكي واضحاً من دون لبس فالولايات المتحدة لا تسيطر على جميع محيطات وبحار العالم فحسب بل لديها القدرة الحاسمة للسيطرة على البر الذي ترغب النزول فيه، وهذا ما بان واضحاً في حرب الخليج الثانية ١٩٩١ وغزو الصومال ١٩٩٢ والحرب على يوغسلافيا ١٩٩٩ والحملة العسكرية على افغانستان ٢٠٠١، واحتلالها العراق ٢٠٠٣، يأتي متوافقاً مع استنتاج (ماكندر) في ما يخص السيطرة على (الجزيرة العالمية) من خلال قوة برية ذات امكانات هائلة، وهذا ما تملكه الولايات المتحدة الأمريكة الآن، ليس على صعيد هذه القوة فحسب، بل يشمل ذلك امكانات الجو والفضاء الخارجي والبحار والمحيطات، مما يشير إلى أننا أمام قوة كونية وليست عالمية فقط، يضاف إلى ذلك أن تلك القوة قد أجادت استخدام الجديد من الاكتشافات والابتكارات التي تقدمها لها ثورة الاتصالات والمواصلات في خدمة طاقاتها وقدراتها القتالية غير المسبوقة في التأريخ، وبما يخدم مخططها الكوني متعدد الأغراض.

أن القوة الكونية الكاسحة (Hyper Power) قد تحققت الآن بالكامل للولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن انجزت سيطرة أشبه بالكاملة على (الجزيرة العالمية) من خلال سيطرتها على الهلالين الداخلي والخارجي لمنطقة السويداء، فتواجد قواتها العسكرية تحت شعار (الحملة من أجل السلام) قد تم في معظم دول الاتحاد السوفيتي السابق في القفقاس وآسيا الوسطى، مع وجودها العسكري في تركيا من خلال حلف الناتو، وتواجدها العسكري في أفغانستان مع ما أضيف لهما من التواجد الفعال والمكثف للقوات الأمريكية في العراق بعد احتلاله عام ٢٠٠٣م، ووجودها البحري والجوي في معظم دول الخليج العربي من دون أن ننسى القوة (الإسرائيلية) كاحتياطي ستراتيجي للقوات الأمريكية في حالة حدوث أي خلل، مما يعني أن مشاهد القوة لا تحتاج إلى استدلال في تأشير أهمية المنطقة المتواجد فيها المحتلون، يرافق ذلك انكفاء روسي لا حدود له على الصعيد السياسي والعسكري والاقتصادي، بل أن الوجود العسكري الأمريكي في دول القفقاس

---

[12] زبيغنيو بريجنسكي، الفوضى، ترجمة مالك فاضل، ط١، الأهلية للنشر والتوزيع، عمال ١٩٩٨، ص: ١٣٦

وآسيا الوسطى تم بموافقة ورضا روسين، وهو أمر يثير الاستغراب، يضاف إلى ذلك ما أضيف من قوة لدور الولايات المتحدة الأمريكية الكوني، قد تحقق بالسيطرة شبه الكاملة على مورد الطاقة الرئيس والمتمثل بالنفط، مع استثناء واحد متمثل بطاقة إيران النفطية، المحاصرة والمهددة بقوة الولايات المتحدة مع ما يسندها من تحالف دولي، الغاية الرئيسية منه الاستحواذ بالكامل على طاقة مستقبل العالم الغربي، وأن تحقق ذلك (وهو شبه متحقق) فأن كل استنتاجات (ماكندر) على وفق الرؤية العصرية التي نعيشها، دون أن نسقط من حساباتنا مستجدات العصر وحاجاته وامكانات القوة فيه، مع الأخذ بنظر الاعتبار لكل المفاجآت التي ظهرت في الطريق أو التي ستظهر، تكون درجة التحقق لهذه النظرية أشبه بالكاملة.

وبرغم أن (ماكندر) قد أكد على أهمية القوة البرية في التمكن من (الجزيرة العالمية) التي تفضي السيطرة على العالم، ألا أن عصر اليوم الذي تؤدي فيه الولايات المتحدة الأمريكية دوراً كونياً طاغياً، استطاعت أن توظف ذلك الاستنتاج بقدراتها التسليحية الهائلة التي تمكن (قواتها البرية) من السيطرة على (الجزيرة العالمية) بالاسناد الذي تقدمه لها أسلحة الجو والفضاء، بحيث يبدوا الأمر أشبه بحروب من طراز خاص، مما يبعد عن المهاجم ارتفاع التكلفة البشرية القتالية، ويدمر ويحبط همم ومعنويات المدافع أي توظيف التقنية في خدمة الهدف المطلوب، ولعل في نماذج الحرب العدوانية التي شنتها على العراق عام ٢٠٠٣، انموذجاً لتلك التطبيقات.

هذه القوة غير المسبوقة، تمنح من يمتلكها القدرة في فرض نفوذه على الآخرين بطرائق متعددة، ولايستثنى في ذلك حتى من تدعي لنفسها أنها دول (كبرى). وأحياناً تكون ممارسة لعبة القوة عن بعد، من خلال حزمة من صواريخ (الكروز) و(التوملهوك) على من يحاول مشاكسة المخطط الأمريكي الكوني، وهذا ما كان يفعله الأمريكان مع العراق قبل احتلاله عام ٢٠٠٣م. وحينما تستوجب الضرورة أن يتواجدوا على الأرض، فأنهم يفعلون ذلك سريعاً، وهذا ما فعلوه في دول الخليج العربي، حيث أضافوا لقوتهم قوة مضافة، يحققها لهم النفط الذي مكنهم من ترسيخ دورهم الكوني حتى على أصدقاءهم في أوربا الغربية واليابان حيث حول الأمريكان هذه المنطقة ذات الأهمية الاقتصادية إلى محمية عسكرية أمريكية، تتحرك فيها القوات الأمريكية بالطريقة التي تضمن سلامة الأمن القومي الأمريكي ومصالحه في الخليج أو في مناطق أخرى ومن دون الحاجة إلى الاستئذان من أهل (الدار) لأن شرعية القوة التي تملكها تغني واشنطن عن طلب الأذن من أحد.

لكن الملاحظة الجديرة بالتسجيل أنها المرة الأولى في التأريخ التي تضطر فيها الولايات المتحدة الأمريكية إلى توجيه سياسة خارجية عالمية من دون أن يكون لها هناك عدو ايدلوجي شديد البأس يعادلها في القوة والنفوذ ومن دون ان تكون هناك خطة استراتيجية محددة المعالم في عالم لا يمكنها السيطرة عليه أو الانسحاب منه أمام فوضى

عالمية تضرب بأفعالها الجميع[13]، بل أن هذا الدور الكوني، نـراه أكـبر مـن قـدرات الولايات المتحدة، لأن القوة المفرطة أن لم يتحكم فيها عقلُ إنساني ستكون وبـالاً علـى صاحبها، مضافاً لذلك أن عصر الاحتلالات بأشكاله المتعددة، قد ولى زمانه، ممـا يولـد شحنة من الكراهية والمقت، يدفع الإنسان أن يمارس العنف في أعلى مراحله، ولعل فـي ما حدث في ١١ ايلول/سبتمبر ٢٠٠١ فوق مدينتي نيويورك وواشنطن مثلاً لذلك الاحباط الذي ولدته السياسة الخارجية الأمريكية، من خلال انحيازها بالكامل لكل ما تطرحه القوى الصهيونية العالمية ضد العرب والمسلمين[14]، وقطعاً أن ذلك أمر له أكثر من دلالة.

أن أشكال الهيمنة المتحققة للولايات المتحدة في المنطقة التي أشار أليها (هـالفرد ماكندر) في نظريته المعروفة، قد باتت واضحة، سواء على صعيد التواجـد العسـكري الفعلي أم من خلال الاستشعار المتبادل بين الدول، يعززه في ذلك ما تمكنت منه الولايات المتحدة الأمريكية، من تجيير كل حقول الإنتاج النفطي الممتدة من بحـر قزويـن حتـى مسقط، تحت نفوذها وهيمنتها من دون أن ننسى الاستثناء الإيراني، الأمر الذي يعني فـي الزمن المنظور، قدرة الولايات المتحدة الأمريكية في التحكم في مجمل سياسات العـالم، بفعل القوة العسكرية ام بفعل القوة الاقتصادية، أم بكليهما معاً، وفي ذلك دور امبراطوري جديد لم يشهد التأريخ تجربة مماثلة له، وفي الوقت نفسه، لم يشهد التأريخ تأزماً وحروبـاً غير منقطعة منذ أن انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بالتقرير في مصير العالم، وفـي ذلك ملاحظة علينا أن لا تفوتنا، لأنها تعني الكثير في قادم الأيام.

الخاتمة

يوم سطر (ماكندر) نظريته التي أولاها متابعة وتحديثاً، لم يكن يخطر في باله، أن تتواجد قوة على الجزيرة العالمية، وهي تملك كل مستحدثات الأسلحة مـن نوويـة إلـى ليزرية إلى عابرة للقارات، ولم يكن في إمكانه أن يتحقق أن تلك القـوة المفرطـة فـي امتلاكها الأسلحة، تحمل على كتفيها قوة اقتصادية هائلة، قادرة في لحظات أن تضع العالم أمام أزمةٍ في كل ساعة، يضاف إلى ذلك، أن تحت امكانات هذه القوة كل مستحدثات العلم التي استخدمها المهيمن في مخططاته، على الصعد كافة، سياسـية، ثقافيـة، أجتماعيـة، اقتصادية، عسكرية،..الخ.

وبذلك يتضح عدم قدرة أحدٍ على معادلة المهيمن أو التكافؤ معه، وهو ما يستوجبه الصراع الدولي، الأمر الذي يعني انفراده بالتقرير والتنفيذ على وفـق مصالحـه، وهنـا الخطورة على كوكبنا الأرضي من التدمير أزاء جشع وعدوانيـة مـن يمتلكـون القـوة المفرطة، والذي يخشى أن تستعمل في الزمان الخطأ وفي المكان الخطأ.

---

(13) محمد حسنين هيكل، الأمبراطورية الأمريكية والاغارة على العراق، ط٢، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣، ص: ١٦٠ ومابعدها

(14) صلاح الدين حافظ، لماذا يكرهوننا..لماذا نكرههم، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣، ص: ٧٦

المصادر: الكتب

١. إسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية، مطبوعات جامعة الكويت ١٩٧١.
٢. غيمانويل تود، ما بعد الأمبراطورية، ترجمة محمد مستجيد، دار سطور، القاهرة ٢٠٠٤.
٣. د.حميد حمد السعدون، فوضوية النظام العالمي الجديد، دار الطليعة العربية للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠١.
الغرب والإسلام والصراع الحضاري، دار وائل للطباعة والنشر، عمان ٢٠٠٢.
٤. زبيغنيو بريجنسكي، رقعة الشطرنج الكبرى، ترجمة أمل الشرقي، ط١، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٩.
الفوضى، ترجمة مالك فاضل، ط١، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٨.
٥. د.عبد المنعم الوهاب، جغرافية العلاقات السياسية، منشورات مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٧٧.
٦. د.عبد القادر محمد فهمي، المدخل إلى دراسة الاستراتيجية، جامعة بغداد/كلية العلوم السياسية، بغداد ٢٠٠٥.
٧. د.عماد فوزي شعيبي، السياسة الأمريكية وصياغة العالم الجديد، دار كنعان، دمشق ٢٠٠٣.
٨. نعوم تشومسكي، القوة والإرهاب، ترجمة إبراهيم يحيى الشهابي، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٣.
٩. صلاح الدين حافظ، لما يكرهوننا..لماذا نكرههم؟، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣.
١٠. د.كاظم هاشم نعمه، الوجيز في الاستراتيجية، جامعة بغداد/كلية العلوم السياسية، بغداد ١٩٨٨.
١١. محمد حسنين هيكل، الأمبراطورية الأمريكية والاغارة على العراق، ط٢، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣.